منارات
manarat

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة الأيام للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

"22عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"

www.almadasupplements.com

العدد (6067) السنة الثالثة والعشرون - الأربعاء (14) كانون الثاني 2026

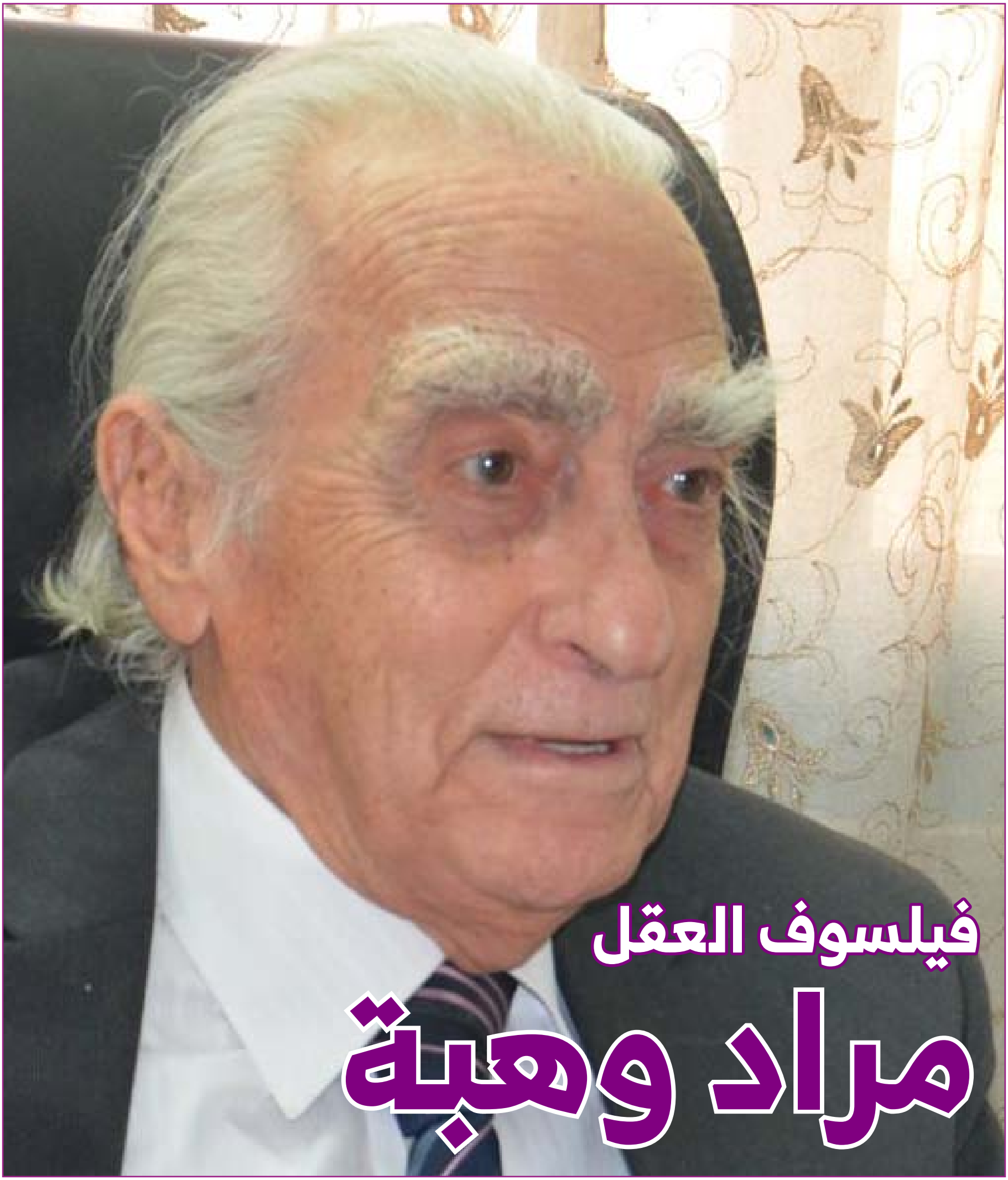

فيلسوف العقل

مراد وهبة

مراد وهبة، سيرة فكرية

شوقي بدر يوسف

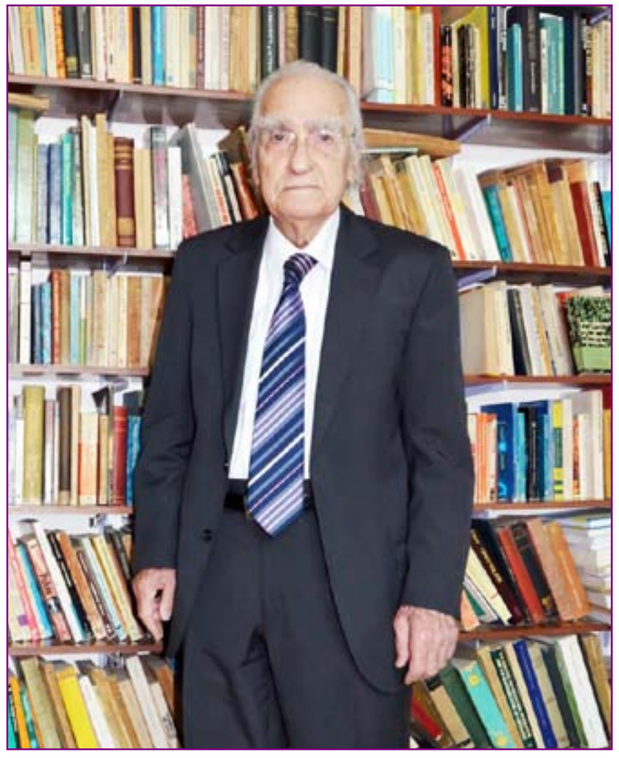

الحديث عن الدكتور مراد وهبة أستاذ الفلسفة في جامعة عين شمس، والذي كان ينادي بفلسفة التنوير في المشهد العربي وأهميتها في المصالحة التاريخية بين الدين والفلسفة، بين الإيمان والعقل، بين الإسلام والحداثة، ومحاولته الدؤوبة في تأسيس مفهوم العلمانية في المنطق، والرؤى الفلسفية المرتبطة بها في عالمنا العربي، كانت بلا شك محاولة جادة لها كتابتها المؤسسة لموضوعية هذه المصالحة.

هو عضو في مجموعة من الأكاديميات والمنظمات الدولية العريقة في هذا المجال، منها الأكاديمية الإنسانية، والاتحاد الدولي للجمعيات الفلسفية، إضافة إلى عضويته في المجلس الأعلى للثقافة المصرية، كما أنه يرأس الجمعية الدولية لابن رشد والتنوير، وقد ذُكر ضمن الموسوعات التي تضم الشخصيات العالمية الأكثر شهرة في مجالات الفكر والفلسفة. ومن مؤلفاته: "المذهب في فلسفة برجسون" ١٩٦٠، "محاورات فلسفية في موسكو" ١٩٧٧، "فلسفة الإبداع" ١٩٩٦، "مستقبل الأخلاق" ١٩٩٧، "جرثومة التخلف" ١٩٩٨، "ملاك الحقيقة المطلقة" ١٩٩٨، "الأصولية والعلمانية" ٢٠٠٥. ويرجع اهتمامه غير المسبوق بفلسفة ابن رشد القائمة على الفكر الذي نقل أوروبا القرن الـ١٦ من غياهب الظلام والجهل إلى آفاق النور والتنوير، والتنوير كمصطلح يشير إلى نشوء حركة ثقافية تاريخية قامت بالدفاع عن العقلانية ومبادئها كوسائل لتأسيس النظام الشرعي للأخلاق والمعرفة. من هنا نجد عصر التنوير جاء كبداية لظهور الأفكار المتعلقة بتطبيق العلمانية ومهمتها الأساسية في قيادة العالم نحو التطور والتحديث وترك التقاليد الثقافية القديمة والأفكار اللاعقلانية التي كانت سائدة في بعض العصور المظلمة. وتاريخ الفلسفة كما رأه الدكتور مراد هو سجل لمجموعة الأحكام والتصورات التي أطلقها الفلاسفة على الوجود ككل، وعلى الكون في مجموعه، وعلى الحياة في معناها الشمولي، بكل ما اشتملت عليه هذه الأحكام وتلك التصورات من نظرات دينية لأحكام، وإنسانية الرؤية الفكرية، وتلك التصورات من نظرات أخلاقية وجمالية، وهي في حقيقتها لم تكن إلا تعبيراً عن رؤى الفلاسفة وتجاربهم الذاتية. وهذه النظرة الفلسفية تواجت عند العديد من منظري الفلسفة في رؤى علمية وأفكار ثابتة، فهي لا تتحدث عن الأشياء المادية في حد ذاتها مفترضة أن لها وجوداً ثابتاً دائماً، والنتيجة لهذه النظرة أن تلوذ الفلسفة بالوجود الوحيد الذي تطمئن إليه؛ وهو الوجود المنطقي.

وقد حظيت فلسفة التنوير لديه على أهمية كبرى في اهتماماته الفلسفية، وهي الفلسفة الأم التي نشأت في عصر التنوير وكانت جزءًا فاعلاً في هذا العصر، قامت كحركة فكرية خلال مرحلة مهمة من تاريخ أوروبا الحديث؛ قام بها الفلاسفة والعلماء في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، حيث نادوا بقوة العقل وقدرته على فهم العالم وإدراك ناموسه وقوانين حركته، واعتمد فيه التنويريون على التجارب العلمية والنتائج المادية الملموسة الناتجة عنها بدلاً من الاعتماد على الخرافات والتأويلات الخيالية الحادثة فيها. ومن أهم أعمال التنوير كان فرانسيس بيكون المحامي الإنجليزي الذي طالب بالاعتماد على المنهج العلمي القائم على أساس من التجربة العلمية الخالصة، وبشر فيها بحالة جديدة تتحقق في المستقبل، عندما تصبح المعرفة مصدر القوة التي تمكن الإنسان من السيطرة على الطبيعة والحياة بكل مكوناتها، كذلك إسحق نيوتن، عالم الرياضيات، الذي قال بأن العالم يسير حسب مجموعة من القواعد الطبيعية تحكمها قوى حاضرة في عوامل الجاذبية، وأكد نيوتن أن في استطاعة الإنسان إذا اعتمد على نور العقل ونتائج التجربة تفسير الظواهر الطبيعية التي تحكمها قوى عوامل الجاذبية، وإدراك دوره في العالم المجهول والسير قدمًا إلى الأمام في سبيل حياة أفضل كلما كان العقل هو ديدنه في التفكير والتحليل والعمل.

لا شك أن تجربة التنوير كانت تجربة لها ثراؤها الخاص، وهي بجميع المقاييس العملية والعلمية يجب أن تُعاش كما صرح بها الدكتور مراد وهبة بحسب مفهوم سقراط، وهذا يؤكد على حيوية الذاكرة وأنشطتها في التذكر، والتحوط المطلوب في ضياع السرديات القديمة التي هي أفق التجربة كما قال عنها بول ريكور في كتابه (التاريخ، الذاكرة، النسيان). هذا الماضي البعيد أو القريب هو مرآة كاشفة عن الذاكرة والتاريخ، ولا بد من العناية بها للحفاظ على هذه الذاكرة الفاعلة في المساهمة بصياغة الهوية الخاصة بنا جميعًا.

وهذه الذاكرة الجمعية هي التي يحاول الدكتور مراد وهبة أن يحيل إليها في كل آرائه وأفكاره الحيوية التي ينادي بها للنصرة العصر ومثقفيه، ففي حوار معه حول دور المثقف تجاه التيارات التكفيرية الإرهابية والدور الإيجابي للمثقفين تجاه هذه التيارات؛ يجيب الدكتور مراد بأن المثقف يكتفي بإدانة الإرهاب، ويمتنع عن إزالته بالتوجه إلى قضايا أخرى لا علاقة لها بالإرهاب، مثل الفقر والجهل وغيرهما، لأن هذه الأمراض موجودة قبل الإرهاب وبعده، ولها حلول أخرى لا علاقة لها بالإرهاب. فالمثقف يقول دائمًا: إنه يوجد إرهاب، لكن ما سببه؟ سببه الفقر. هذه خديعة.

ويذكرنا بما حدث لنجيب محفوظ، من شاب جاهل طعنه بسكين، وسأله محفوظ إن كان قرأ "أولاد حارتنا" فقال: لا. فمن الذي قرأها؟ الذي قرأها مثقف قال للشاب أن يقتل نجيب محفوظ لأنه كافر. نجيب الذي أدى دوره التنويري بكتابة رواية "أولاد حارتنا" ، ويشير الدكتور مراد إلى أنه أول من كتب عنها في جريدة "وطني" حين انتهى نشرها مسلسلة في الأهرام؛ لأني لمحت الدور التنويري في هذه الرواية، حيث جعل من "عرفة" رمزًا للعلم، ولا يعرف أحد من أين جاء، ولا أين ذهب؟ وهذا يعني أننا ضد العلم والعلم.

ولعل السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : أين دور المثقف الذي عاصر نجيب محفوظ؟ لقد أمضى المثقفون وقتهم في الالتفاف حول نجيب محفوظ والتسامر معه، من دون أن ينجزوا ما عليهم، وحين لمح نجيب محفوظ الدور المتخاذل للمثقف من حوله، أدرك أنه لن يكون سندًا له، وبالتالي – كما يشير الدكتور مراد – لا نطالب نجيبًا بأكثر من أنه كتب الرواية ونشرها، فهل يقتل نجيب محفوظ نفسه من أجل مثقف كل دوره أنه يتباهى بصداقة نجيب؟ أم أن المسألة هي الالتفاف معًا لتغيير الذهنية المصرية الحاضرة الآن؟

ومن أبرز وأهم من صنعوا الفلسفة في مصر: الدكاترة مراد وهبة، عبد الرحمن بدوي، فؤاد زكريا، زكريا إبراهيم، حسن حنفي، عبد الغفار مكاوي، أحمد فؤاد الأهواني، أميرة بطر، والأستاذ زكي نجيب محمود، والأستاذ محمود أمين العالم وغيرهم كثيرون ممن كانت الفلسفة ديدنهم في أعمالهم الفكرية والثقافية والرؤيوية، وقد درج كل منهم في عالمه الفكري نحو القياس في نقاط محددة احتفى بها وغاص في ملامحها المختلفة والمتنوعة.

ويعتبر الدكتور مراد وهبة من أبرز من صنعوا لأنفسهم عالمًا فكريًا خاصًا به، ربط فيه الفلسفة مع الجوانب التنويرية الليبرالية للحياة المعاصرة من زوايا عدة، كان منهجه فيها يحمل زوايا تعتمد من أضواء التنوير وفلسفتها ملامح فكر ابن رشد علامات منهجية استخدمها في تحليل رؤاه الفلسفية والفكرية. لذا كانت كل الأسئلة التي طرقها ذات الأهمية الكبرى بالنسبة للعقول المفكرة، وكانت هي تقريبًا من ذلك النوع الذي باستطاعة العلم الإجابة عنه، كما أن إجابات اللاهوتيين الواثقين بأنفسهم لم تعد –على ما يبدو– مقنعة كثيرًا كما كانت في القرون الوسطى. ومثال هذه الأسئلة هو: هل العالم ينقسم بين العقل والمادة؟ وإن كان الأمر كذلك، فما السبيل إلى تحرير العقل والعكوف على ما تفرزه المادة، خاصة ما استطاع العلم الحديث أن يجود به ويطرحه على مستوى الواقع؟ من هنا كانت الفلسفة هي النظر في الأسئلة الوجودية الكبرى لتحقيق رؤية كونية عن العالم والكون والحياة، كذلك هي بحث في الواقع يستهدف إيجاد حلول للمشكلات التي تؤرق الفرد والمجتمع. وقد قيل إنها روح عصرها وبنت بيئتها أيضًا، أي المعبر عن الواقع الذي ترتبط به، وتنشأ أفكارها منه، وحينئذ لا تشذ الفلسفة عن آمال وهموم الناس فتكون الأفكار التي تتمخض عنها أفضل ترجمان لطبيعة تفكير الناس وطبائعهم الخاصة والعامة. والحقيقة أنه ما المثقف فلسفيًا إلا من يشغل دورًا في المجال العام ويفكر فيه بحثًا عن حلول لمشكلاته، ولهذا قيل إن الفلسفة منعزلة عن الواقع وبعيدة عن أداء دورها في تحقيق مسؤوليتها تجاه الناس والحياة. ومن صحيح القول أن الفلسفة صناعة للمشكلات التي يعج بها الواقع، فهذه المشكلات التي تدهش عقل الإنسان وتدعوه للتفكير فيها بحثًا عن حلول لها مصدر من مصادر الفلسفة. فكل جواب وكل حل لمشكلة إنما هو في الأساس فكرة ومفهوم حققه العقل الإنساني وصار معرفة فلسفية لقيمة كخبرة في التاريخ، وتجربة جاهزة للمستقبل ومعرفة بالتاريخ الذي نشأت فيه فلسفة من الفلسفات. إلا أن للدكتور مراد وهبة اتجاهه الخاص الذي أوضحناه في بداية هذا الطرح من الوجهة الفلسفية التي كان يعتمدها في حياته الفكرية، وكان منجزه الإبداعي هو السبيل والطريق الذي سار من خلاله نحو هذا العالم الفكري الحديث.

ففي كتابه "الأصولية والعلمانية" تحدث الدكتور مراد حول الحقيقة المطلقة المثيرة للتساؤل عن نشأتها ومبرر ملكيتها، فقال: "فلسفيًا يمكن القول بأن الإنسان، منذ نشأته، ينشد الحقيقة المطلقة بحكم أن العقل الإنساني ينزع بطبيعته نحو توحيد المعرفة الإنسانية. وهو من أجل ذلك يتجول في كل مجال من مجالات المعرفة، ثم هو يهضمها جميعًا، ويربط فيما بينها في وحدة عضوية بحيث لا يتيسر معه فصل عضو عن الكائن إلا بالقضاء عليه كله، ونزوع العقل نحو التوحيد هو في الوقت ذاته نزوع نحو المطلق. والإنسان ينشد الحقيقة المطلقة كذلك بحكم إحساسه بعدم السكينة في هذا الكون".

وفي كتابه "العنف والمقدس" وهو جملة أبحاث مما كان مطروحًا في مؤتمر عقد عام ١٩٨١ تحت عنوان "الشباب والعنف والدين" تدور موضوعاته حول تحليل العلاقة بين العنف والمقدس في ضوء الظروف الحاضرة في ذلك الوقت الراهن الذي بدأ في البزوغ في السبعينيات من هذا القرن. أشار فيها الدكتور مراد وهبة إلى منطق هذا العنف بقوله: "ما لم يوجد بعد هو الحق..". وهذه العبارة مناقضة لعبارة "هيجل" في مقدمته لكتابه "فلسفة الحق" حيث يقول: "إن مهمة الفلسفة هي فهم ما هو كائن، لأن ما هو كائن هو العقل. والبصيرة العاقلة التي تصالحنا مع ما هو واقعي تدور على إقرار أن العقل هو مثل الزهرة في صليب الحاضر، ومن ثم فهو الذي يمكننا من الاستمتاع بهذا الحاضر".

ومعنى هذه العبارة أن الهيجل يضع العقل في مستوى أفقي مع الواقع، ونحن نتفق ونفترق في قبول هذه العبارة، الاتفاق من حيث إن العقل يتجه إلى إدراك الواقع، ولكن الافتراق في أن هذا الإدراك لا يبدأ من الواقع الراهن، ولكن من الواقع المستقبلي، أي لا يبدأ مما هو كائن، ولكن مما سيكون. وهذه البداية مردودة إلى التمايز بين الإنسان والحيوان في علاقة كل منهما بهذا الواقع، ولبيان هذا التمايز يقول ماركس: "في نهاية أي عمل يصل الإنسان إلى نتيجة كانت قائمة في مخيلته عند بدء العمل". ومعنى ذلك أن نشاط الإنسان ينطوي على فكرة "الغاية"، وأن فكرة الغاية تتجاوز الواقع من أجل العمل على تغييره.

ومن هذه الزاوية فإن العبارة – مفتتح هذا المقال – تكشف عن مفارقة وأعني بها أن الحقيقة لها علاقة عضوية مع ما هو ممكن وليس مع ما هو كائن. والنزاع بين ما هو ممكن وما هو كائن قائم منذ بداية الفكر الفلسفي. ففي الفلسفة اليونانية القديمة، العقل هو الملكة العارفة التي تميز بين ما هو حق وما هو باطل، من حيث إن الحقيقة هي شرط الوجود الواقعي، وبفضل هذه الوحدة بين الحقيقة والوجود الواقعي يكون الوجود أفضل من اللاوجود، فاللاوجود تهديد للوجود بل مدمر له، ولكني أرى المسألة على عكس ذلك، فالوجود الواقعي أو الواقع الراهن هو المهدد الحقيقي للوجود، لما هو ممكن، أو لما سيكون. ولهذا فعلى العقل أن يقيس الوجود باللاوجود، أي يقيس الكائن بما هو ممكن، وإذا كان هذا المقياس مقبولا فإن ما سيكون هو البديل لما هو كائن".

وفي كتابه "جرثومة التخلف" — ولعل هذا العنوان يضعنا أمام حجم القضية والإشكالية الكبرى في عالمنا العربي بسبب التباين وعزلة التخلف التي وضع فيها هذا العالم من الكتلة الاستعمارية الاستغلالية في عدم السماح لعالمنا العربي بالتقدم، بل والاستحواذ على ثرواته وعقوله الخلاقة لخدمة أغراضه ومصالحه الخاصة — يقول الدكتور مراد في كتابه "جرثومة التخلف" : "لا شك أن لهجرة المهنيين والمثقفين في الشرق الأوسط وفي البحر المتوسط آثارها العميقة في الوضع الحضاري المتخلف، فكيف يمكن أن نتغلب عليها؟

في تصوري أن قضية هجرة المهنيين تتبلور في "هجرة المثقفين". ذلك أن مجتمعات الشرق الأوسط مجتمعات متخلفة، وليس المقصود بالتخلف المعنى الاقتصادي، وإنما المعنى الحضاري. ذلك أن هذه المجتمعات يغيب عنها عصران لا غنى عنهما في إزالة التخلف؛ وأعني بهما: عصر الإصلاح الديني في القرن السادس عشر، وعصر التنوير في القرن الثامن عشر.

العصر الأول هو عصر تحرير العقل من سلطان المؤسسة الدينية، والعصر الثاني هو عصر تحرير العقل من كل سلطان ما عدا سلطان العقل. وكان من شأن هذين العصرين أن استطاعت أوروبا أن تنتقل من المجتمع الإقطاعي إلى المجتمع الرأسمالي ثم المجتمع الاشتراكي. ومن هنا فإن المثقفين هم طليعة الطبقة الاجتماعية الصاعدة في أي تغير اجتماعي، وهم طليعة الطبقة البرجوازية في الثورة الفرنسية، وهم طليعة الطبقة العمالية في الثورة البلشفية.

ولهذا فإن هجرة المثقفين من مجتمعاتهم المتخلفة في الشرق الأوسط يحرم الطبقات الاجتماعية الصاعدة والراغبة في إزالة التخلف من عنصر قيادة جوهري".

وينتقل الدكتور مراد وهبة للحديث عن قيمة التراث العربي ودوره الفلسفي في إثراء الفكر الإنساني، حيث يقول: "يمثل التراث العربي قيمة معاصرة ومستقبلية في آن واحد، ويعد عالم عربي مثل ابن رشد من الأسماء التي يجب أن تتصدر اهتمام الفكر العربي المعاصر، فهل لك أن تذكر، تحديدًا، القيمة التي ينطوي عليها؟

في تصوري أن الإضافة التي أثرى بها ابن رشد الفكر الإنساني هي سلطان العقل الذي لا يعادله أي سلطان. يقول ابن رشد في كتابه "فصل المقال": "ونحن نقطع قطعًا أن كل ما أدى إليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع فإن ذلك الظاهر يقبل التأويل". والمقصود بالبرهان هنا هو البرهان العقلي.

من هذه الزاوية يمكن القول إن ابن رشد كان ممهدًا لعصر التنوير الذي تميزت به الحضارة الإنسانية في القرن الثامن عشر، واتخذ موقعًا له في الظهور في الحضارة الغربية. ونقول الحضارة الغربية لا الحضارة العربية؛ لأن فلسفة ابن رشد قد أجهضت في العالم العربي إثر ما يُسمَّى بـ"نكبة ابن رشد"، وهي النكبة التي حدثت حين أصدر المنصور أمرًا بنفيه إلى "اليسانة"، في حين أن الإمبراطور فريدريك الثاني قد أمر بترجمة مؤلفات ابن رشد ونشرها، وقد كان في صراع مع رجال الدين المسيحي، وكانت فلسفة ابن رشد العقلية هادية له في مواجهة هذا الصراع. و"المفارقة" هنا أن ابن رشد ميت في الشرق، حي في الغرب، وهي مفارقة في حاجة إلى تفسير".

وخلاصة فلسفة ابن رشد تقوم على: "أن أعظم المسائل التي شغلت حكيم قرطبة كانت مسألة أصل الكائنات. وهو يرى في ذلك رأي أرسطو، فيقول: إن كل فعل يفضي إلى خلق شيء إنما هو عبارة عن حركة. والحركة تقتضي شيئًا لتحريكه ويتم فيه بوساطتها فعل الخلق. وهذا الشيء هو، في رأيه، المادة الأصلية التي صُنعت الكائنات منها، ولكن ما هذه المادة؟ إنها شيء قابل للانفعال ولا حد له ولا اسم ولا وصف، "بل هي ضرب من الافتراض لا بد منه ولا غنى عنه". وبناءً على ذلك يكون كل جسم أبديًا بسبب مادته، أي أنه لا يتلاشى أبدًا، لأن مادته لا تتلاشى أبدًا. وكل أمر يمكن انتقاله من حيز القوة إلى حيز الفعل لا بد له من هذا الانتقال، وإلا حدث فراغ ووقوف في الكون. وعلى ذلك تكون الحركة مستمرة في العالم، ولولا هذه الحركة المستمرة لما حدثت التحولات المتتالية الواجبة لخلق العالم، بل لما حدث شيء قط. وبناءً على ذلك، فالمحرك الأول الذي هو مصدر القوة والفعل "أي الخالق سبحانه وتعالى" يكون غير مختار في فعله".

وفي كتابه "قصة الفلسفة" يشير الدكتور مراد في مقدمة هذا الكتاب إلى التعريف الأول للفلسفة بأنها البحث عن المطلق، ويستطرد بتساؤل لاته عن معنى الفلسفة والمطلق؟ فيجيب بأن: "الفلسفة، في أصلها اليوناني، تعني حب الحكمة، فيقال: فيلوسوفوس باليونانية، أي محب للحكمة"، ويشير الدكتور مراد إلى أن الفيلسوف إذن ليس حكيما، بل هو مجرد عاشق للحكمة.. لماذا؟ لأن الله وحده هو الحكيم، في رأي فيثاغورس واضع لفظ الفلسفة، إذ قال: "ليست حكيما إلا الحكمة لا تضاف لغير الإلهة، وما أنا إلا فيلسوف". والله "مطلق" بمعنى أنه موجود قائم بذاته، وليس قائمًا بموجود آخر. والذي يقوم بذاته لا بد أن يكون "بسيطا" وليس مركبًا من أجزاء؛ إذ لو كان مركبًا لاستلزم موجودًا آخر يكون سببًا في تركيب أجزائه. البسيط إذن هو الواحد بالضرورة. غير أننا لا نفهم معنى "الواحد" إلا في مقابل "الكثير"، ومعنى "المطلق" إلا في مقابل "النسبي"، من هنا نسأل: ما الصلة بين المطلق والنسبي؟ سؤال فلسفي، والجواب عنه هو ما يحكى "قصة الفلسفة" التي يشير إليها هذا الكتاب.

عن مجلة الهلال

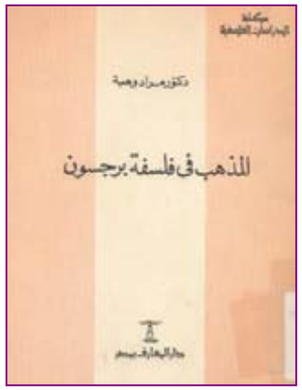

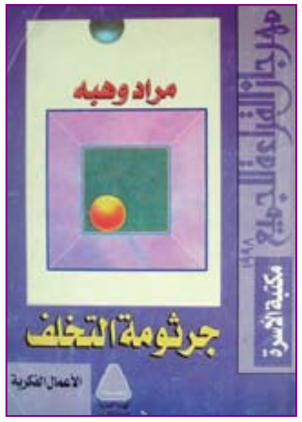

مع مراد وهبة فى مكتبة الإسكندرية

أحمد عبد المعطى

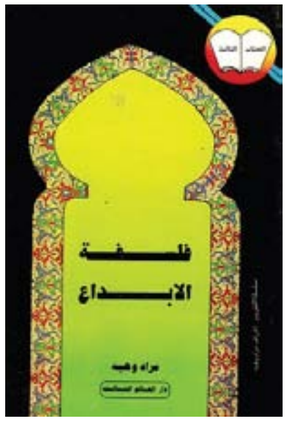

وأنا أكتب هذه المقالة عن الندوة التى نظمتها مكتبة الإسكندرية احتفالا ببلوغ مفكرنا الشجاع مراد وهبة العام المائة من عمره المديد، أبدأ بتوجيه الشكر الجزيل للدكتور أحمد زايد مدير المكتبة الذى مكننا من أن نرد بعض الدين لصاحب الدين المحتفى به الذى أعطانا الكثير، وأعطى الفكر العربى، وأعطى العقل فعرفنا الماضى، وعشنا فى الحاضر، وفكرنا فى المستقبل، ولم يلق منا طوال القرن الماضى إلا الصمت والتجاهل فى معظم الأحيان، والاضطهاد والمصادرة فى أحيان أخرى. والقارئ قد يرى فى هذه السطور التى بدأت بها مبالغات لم يتعودها، فيما أكتبه؟ وهذا ما سوف أوضحه فى صُلب المقالة التى أكتبها، وأنا على علم بأننا لا نعرف الكثير الذى يجب أن نعرفه عن تراثنا وتاريخنا وثقافتنا، وأعرف بالتالى أنى أكتب فى مساحة لا يمكن أن تتسع لما أريد أن أقف عنده من الأسماء والقضايا والتواريخ التى لا تستطيع أى مساحة فى الصحيفة مهما اتسعت أن توفيها حقها، كما لا يستطيع كاتب واحد مهما اتسعت ثقافته أن يلم بها، ويكشف عن أبعادها ومراميها. وما الذى نعرفه عن مراد وهبة؟ هل كان الذين قرأوا له أو قرأوا عنه يعرفون كلهم أنه ولد منذ مائة عام، ودرس الفلسفة فى جامعة فؤاد الأول (القاهرة)، وحصل على الدكتوراه من جامعة الإسكندرية، واشتغل بتدريس الفلسفة فى جامعة عين شمس، وبدأ فى إصدار مؤلفاته فى الستينيات الأولى من القرن الماضى، وظل يكتب فى القضايا المطروحة، ويطرح هو ما يجب طرحه من الأسئلة، ويجيب عن المسكوت عنه من هذه الأسئلة الخطرة، كما رأينا، فيما كتبه عن الفيلسوف العربى الأندلسى ابن رشد الذى ملأ الدنيا وشغل الناس، وكان ثمرة ناضجة من ثمار الثقافة العربية الإسلامية، وأصلا من أصول النهضة الأوروبية، لكنه اضطهد فى بلده، وبين قومه وعشيرته، لأنه وقف إلى جانب العقل، وأعلن أنه هو الطريق إلى الإيمان الدينى الصحيح الذى يجب أن يكون اجتهادا فى الموضوع إلى الحق لا تقليدا للآخرين. وتلك هى المفارقة التى وقف عندها مراد وهبة، وجعلها عنوانا لبحث ألقاه فى المؤتمر الدولى الأول للفلسفة الإسلامية الذى عقد فى عام ١٩٧٩. تحت رعاية جامعة عين شمس، وكان عنوان المؤتمر «الإسلام والحضارة»، وقد انتهى مراد وهبة فى بحثه إلى أن «مفارقة ابن رشد» تكمن فى كون ابن رشد ميت فى الشرق حى فى الغرب!. ابن رشد ميت فى الشرق لأنه حوصر فى قرطبة، واتهمه أعداء العقل بالكفر والزندقة، وسلطوا عليه الغوغاء، ونفى بعيدا عن مدينته، ولم يبق فى الساحة إلا الفقهاء المرتزقة، والأمراء المتصارعون الذين مزقوا الدولة، وعجزوا عن الدفاع عنها فالتهمها الأعداء إمارة بعد إمارة حتى سقطت فى أيديهم كلها، وفقد العرب والمسلمون وجودهم فى أوروبا، وهذا هو ثمن اضطهاد أمرائهم وفقهائهم للعقل والحرية.

وفى الوقت الذى لقى فيه ابن رشد هذا المصير الرهيب هو وأهله كانت فلسفته تترجم إلى اللاتينية وتقرأ فى أوروبا، وتنشئ فيها تيارا عقلانيا عبر عن نفسه فى أعمال الفلاسفة والشعراء والفنانين الأوروبيين الذين كانوا يسمون ابن رشد «الفيلسوف النبيل جدا»، وهو فى ملحمة دانتى «الكوميديا الإلهية» من «الوثنيين الفضلاء»! وفى لوحة المصور رافاييل التى سماها «مدرسة أثينا» يحتل مكانا بارزا، والعلاقة وثيقة بين فلسفة ابن رشد وبين الفلكى الشهير جاليليو، وقد تأثر الفيلسوف الفرنسى الشهير ديكارت بابن رشد فى مسألة «وحدة العقل الإنسانى»، وكان الفيلسوف الهولندى سبينوزا مولعا بابن رشد الذى وجد هذا الترحيب فى أوروبا بين القرن الثالث عشر الميلادى والقرن الثامن عشر، وتبنى الأوروبيون دفاعه عن العقل والعلم، وتسلحوا به فى صراعهم مع الكنيسة، واستطاعوا بفضله أن ينتصروا فى هذا الصراع، وأن يخرجوا من عصور الظلام ويحققوا انتصاراتهم التى حققوها فى العصور الحديثة، ومن الطبيعى أن يظل ابن رشد عندنا مضطهدا ومنسيا طوال القرون الماضية التى كانت فيها السلطة طغيانا سافرا، وفى أيامنا هذه التى سيطر فيها على ثقافتنا المتاجرون بالدين، ومن يستخدمونه للوصول إلى السلطة، وهم بالضبط الصحيح الذى لم يلتزم فى دراسة للشعر الجاهلى الذين يسميهم مراد وهبة «ملاك الحقيقة المطلقة» فى كتاب له يكشف فيه النقاب عن هؤلاء الذين يتكلمون وحدهم ويفرضون الصمت على الآخرين، ويضطهدون من يخالفهم، ويعطون أنفسهم الحق فى اغتياله، لأنهم ينطقون باسم الله، كما يزعمون، فهم يملكون وحدهم الحقيقة المطلقة، وعلى الآخرين أن يسمعوا ويطيعوا وإلا حدث لهم ما حدث للشيخ على عبد الرازق لأنه أعلن فى كتابه «الإسلام وأصول الحكم» أن الإسلام لا يعرف السلطة الدينية، ويعطى المسلمين الحق فى إقامة النظام السياسى الذى يحقق لهم الحرية والعدالة والتقدم، وما حدث لطه حسين الذى لم يلتزم فى دراسة للشعر الجاهلى بالنصوص الدينية، وما حدث بعدهما لنجيب محفوظ لأنه ألف رواية «أولاد حارتنا» التى رأى بعض المشايخ أنها كفر مقنع، فأفتوا بقتله، وما حدث لفرج فودة، وما حدث لنصر حامد أبو زيد، وما حدث لكثيرين وقفوا إلى جانب العقل وحرية التفكير والتعبير، ومنهم مراد وهبة الذى قرر أن يقف إلى جانب العقل، كما وقف إلى جانبه هؤلاء، وكما فعل ابن رشد، فكان جزاؤه هو جزاء ابن رشد، الصمت والتجاهل أحيانا، والمصادرة والاضطهاد، أحيانا أخرى، كما حدث له فى سبتمبر عام ١٩٨٠ حين فصل من عمله فى الجامعة بقرار من الرئيس الأسبق أنور السادات تبنى فيه الاتهامات التى وجهت له ولغيره من المثقفين المصريين المناوين بالعقل والحرية، والتى وجهت من قبل لابن رشد، ومن قبل ابن رشد لسقراط، وهى إفساد عقول الشباب!. لكن الرئيس السادات الذى استجاب لملاك الحقيقة المطلقة، وفصل مراد وهبة من عمله لم ينته إلى أن هؤلاء الذين كانوا يسعون للسلطة سيوجهون له اتهامات أخرى، وسيسلطون عليه من يغتالونه، وهو يحتفل بيوم انتصاره، وقد تعلم الرئيس مبارك من هذا الدرس القاسى، فأطلق سراح المعتقلين، وأعاد المفصولين إلى أعمالهم. هكذا كان مراد وهبة طوال الأعوام المائة التى عاشها معنا إلى يومنا هذا كان «الصوت الحاضر»، كما أعلنت عنه مكتبة الإسكندرية فى الندوة التى نظمتها احتفالا به، وبهذا الصوت الحاضر عاد ابن رشد من الغياب الذى استمر ثمانية قرون ليقف إلى جانبنا، ونحن نتصدى لملاك الحقيقة المطلقة أعداء العقل والعلمانية والديمقراطية، والفضل لمراد وهبة الذى أن له ولأمثاله أن يحتلوا مكانهم الذى يستحقونه فى حياتنا الفكرية. وأنا أناشد الدكتور أحمد زايد أن يتبنى هذا النداء ويحوله إلى برنامج نتعرف به من جديد على الرشيدين المصريين.

عن جريدة الأهرام

مراد وهبة: خيانة المثقف جلبت الأصولية إلى العالم

صبحي موسى

هو واحد من الشخصيات التي يصعب عدم الانتباه لحضورها الفكري والثقافي، ليس لأنه صاحب الخصومة الطويلة مع تيارات الإسلام السياسي، ولا لأنه يرى أن العلمانية هي الحل لخلاص الشرق الأوسط من صراع الأصوليات الذي يجتاحه، ولا حتى لأنه التلميذ الأوفى في زماننا لابن رشد، والداعي لإحياء الرشدية العربية في إطار نظرية فلسفية جديدة، ولا لأنه من كبار المثقفين الذين دعوا للحوار مع إسرائيل، وتغيير مناهج التعليم في المنطقة لتكون على أساس علماني لا أصولي، ولكن لأنه نموذج الفلاح المصري القادم من قراه البعيدة ليكون ممثلها الأمثل في ردهات المركز النابض بكل أنواع الثقافات والعلوم.

لا يمكنك أن ترى البروفيسور مراد وهبة إلا يتحدث عن الصراع الدائر بين الأصوليات، ومفارقات الذهنية المصرية والعربية في الزمن الحديث، وعلاقته الملتبسة بعبدالناصر والسادات، والفاترة حد الجمود في زمن مبارك، لا يمكنك أن تتحدث ولا تجده ينصت باهتمام بالغ، ليسألك عما يجري وما يدور من أحداث في العالم، وهو المفكر الكبير الذي احتفل في الرابع عشر من أكتوبر الماضي بإتمامه العام الحادي والتسعين، وصاحب الكتب الإشكالية، بدءًا من «المذهب في فلسفة برجسون» (١٩٦٠م)، و«محاورات فلسفية في موسكو» (١٩٧٧م)، و«فلسفة الإبداع» (١٩٩٦م)، و«مستقبل الأخلاق» (١٩٩٧م)، و«جرثومة التخلف» (١٩٩٨م)، و«ملاك الحقيقة المطلقة» (١٩٩٨م)، و«الأصولية والعلمانية» (٢٠٠٥م)، فضلًا عن مقالاته في كثير من الجرائد المصرية والعربية، وسعيه الدائم لإحياء فلسفة ابن رشد، بوصفها الجسر الذي نقل أوربا في القرن السادس عشر من غياهب الظلام إلى آفاق التنوير، وهي الحل الأمثل الآن ليس للمنطقة العربية فحسب، لكن للحضارة الإنسانية عامة، وبخاصة بعدما طغى عليها صراع الأصوليات المتناحرة في كل مكان.

في هذا الحوار مع «الفيصل» يتيح لنا الدكتور مراد وهبة أن نتأمل معه ما جرى له مع كثير من الأنطقة، بدءًا من الملكية التي استشرى فيها الفساد فسقطت، مرورًا بعبدالناصر الذي عَيَنه سرًّا مستشارًا خاصًا له في شؤون التعليم، والسادات الذي كتبت له أجهزته السرية أن وهبة هو أخطر أستاذ جامعة على النظام، فكان أستاذ الجامعة الوحيد الذي عزله السادات من وظيفته، في حين حاصره مبارك، وفي النهاية جاء الإخوان الذين لم يلبثوا كثيرًا في الحكم. يتحدث أستاذ الفلسفة في جامعة عين شمس عن زيارته لإسرائيل، وكيف راوغت السلطات في السماح له بالذهاب إلى تل أبيب، يحكي عن ذهابه إلى باكستان وكيف رأى تخليها عن أفكار محمد إقبال لصالح «أبي الأعلى المودودي»، منهيًا المثقف بالخيانة، والمجتمعات العربية بعشق التراث وكراهية الحداثة، بل يرصد كيف يعيش العالم حضارة واحدة، يجتاحها صراع المطلقات:

- أمضيت جانبًا كبيرًا من جهدك العلمي في الدعوة لإحياء فلسفة ابن رشد، على الرغم من أن زمن ابن رشد نفسه، كان زمنًا أكثر قوة وتنويرًا مما نحن فيه، إذ لم يُقبَل بفلسفته وأحرقت كتبه وجُرِّمت أفكاره، ألا ترى أن ذلك مفارقة تحتاج إلى تفسير؟

■ المفارقة تعني أنه يوجد تناقض، وكان في زمن ابن رشد تناقض، وفي زماننا أيضًا تناقض، وحين دعيت لإحياء فلسفة ابن رشد في إطار فلسفة جديدة أطلقت عليها «الرشدية العربية» كنت أدرك تمامًا هذا الفارق، أين يكمن الفارق بين زمن ابن رشد وزماننا؟ في زمن ابن رشد السلطة السياسية هي التي استدعت ابن رشد؛ لماذا؟ لكي يشرح ما هو غامض في فلسفة أرسطو؛ لماذا؟ لأن أرسطو هو الملقَّب بالمعلم الأول، وكان فيلسوفًا في القرن الرابع قبل الميلاد، وأرسطو كان له منطق يعتمد على مفهوم البرهان، ومن هنا أمكن لإقليدس أن يؤسس علمًا هندسيًا نظريًا على أساس مفهوم البرهان، كما ورد في فلسفة أرسطو.

إذا استعانت السلطة السياسية بأرسطو، وتركت ابن رشد يقوم بتأسيس تيار أرسطوطالي ولكن بنكهة إسلامية، وكانت تعني أن العالم الإسلامي عليه أن يكون منفتحًا على الحضارة اليونانية، وبالأدق على الفلسفة اليونانية، والدافع إلى ذلك هو رؤية السلطة السياسية في حينها مع مستشارها ابن رشد أمر الغزالي، وهو فيلسوف إسلامي في القرن الحادي عشر الميلادي، كان مهيمنًا على الشرق العربي، والثغرة الموجودة في فلسفة الغزالي أنه ضد الانفتاح على الفلسفة اليونانية، ولذا كفر الفلاسفة المسلمين عندما استعانوا بفلاسفة اليونان، واتهمهم بالكفر على نحو ما جاء في الفقرة الأولى من كتابه «تهافت الفلاسفة»، وكان على ابن رشد ومعه السلطة السياسية أن يمنعوا هذا التيار الالاعقلاني للغزالي من الانتشار في المغرب العربي، ولكنه واجه صعوبات أدت في النهاية إلى اتهامه بالكفر وحرق كتبه ونفيه إلى قرية «أليوسانا»، وهي قرية كانت تتميز بأن أغلبية سكانها من اليهود، ولذلك أطلقت إشاعة بأن ابن رشد من أصول يهودية.

وبذلك انتهت العقلانية في المغرب العربي الذي انضم بعد ذلك إلى المشرق العربي، فأصبح العالم الإسلامي محاصرًا في إطار فلسفة لا عقلانية يتزعمها الغزالي، وفي القرن الثالث عشر، وهو القرن التالي لاضطهاد ابن رشد سيطر ابن تيمية في اتجاه الغزالي على توليد قوة مانعة من أي رغبة للانفتاح على الفلسفة اليونانية، وهذا واضح في رفض ابن تيمية لإعمال العقل في النص الديني؛ لأن آيات القرآن كلها -في رأيه- واضحة المعنى، وليست في حاجة إلى أي إعمال للعقل، وبالتالي هبط بالعقل إلى مستوى الحس، وكفّر من يستعين بالتأويل في فهم النص الديني، ومن هنا أصبح الفارق الجوهري لابن تيمية في فهم أو قبول التأويل. ابن رشد يقول عن التأويل: إنه يكشف عن المعنى الباطني للنص، وهو الأمر الذي يستلزم الاستعانة بالمجاز، من دون الاستعانة بالمعنى الحسي، أما ابن تيمية فيرفض التأويل تمامًا، وهذه هي حقيقة المعركة في العالم الإسلامي في القرن الثالث عشر.

- ماذا حدث بعد ذلك؟

■ ما حدث هو أن العالم الإسلامي وقف عند ابن تيمية، وبالتالي يمكن القول: إن العالم الإسلامي يقف الآن عند القرن الثالث عشر. والآن عندما فطنت إلى أن ابن رشد هو الحل لإخراج العالم الإسلامي من الذائقة الموجودة فيه وجدت أمامي ظاهرة مكتسحة بدأت مع منتصف السبعينيات، وهي ظاهرة الأصولية الدينية، وهي لا تخص العالم الإسلامي وحده، إنما تخص أيضًا العالم الغربي، فماذا تعني ظاهرة الأصولية؟ تعني أن المعتقد الديني في أي دين هو مطلق، فإذا تعددت العقائد الدينية المطلقة فمعنى ذلك تعدُّد المطلقات، وإذا تعددت المطلقات سندخل بالتالي فيما أسميه صراع المطلقات؛ لأن المطلق بحكم تعريفه هو واحد لا يقبل التعدد، وبالتالي إذا تعددت المطلقات فلا بد من مطلق واحد يمارس إقصاء المطلقات الأخرى، يقصيها بتكفيرها في الحد الأدنى وقتل أتباعها في الحد الأقصى، والظاهرة الغريبة ما يحدث في ميانمار أن الأصولية البوذية تذبح أتباع الأصولية الإسلامية، والأصولية الهندوسية تقف وراء الأصولية البوذية في إقصاء واضطهاد الأصولية الإسلامية في ميانمار.

«الرشدية العربية» الآن تأخذ معنى أوسع مما حدث في القرن الثالث عشر، بالرغم من أن مصطلح الرشدية يوحي إليك بأنها مسألة عربية، لكنها ليست كذلك، بمعنى أنه يتحدث باللغة العربية، لكنه مطلوب للعالم بأسره، وذلك لأنه في القرن الثالث عشر في أوربا، عندما أرادت أوربا أن تخرج من العصور الوسطى كان هناك الإمبراطور فريدريك الثاني يقف ضد الأصولية المسيحية المدعمة بالنظام الإقطاعي، وكان فريدريك يقف إلى جانب الطبقة التجارية الصاعدة، فقيل له: لكي تنتصر لا بد أن تستعين بفلسفة ابن رشد، فوافق وأصدر قرارًا سياسيًا بترجمة مؤلفات ابن رشد، وبدأ ينشأ تيار في جامعة باريس ثم إيطاليا اسمه تيار الرشدية اللاتينية، وسُمي كذلك لأن مؤلفات ابن رشد في أوربا كانت باللاتينية، إضافة إلى العبرية، ودخل تيار الرشدية اللاتينية في مواجهة مع السلطة الدينية المدعمة بالإقطاع، وفي النهاية انتصرت الرشدية اللاتينية، فتأسس عصر الإصلاح الديني في القرن السادس عشر، ثم التنوير في القرن الثامن عشر.

هنا يوجد فارق بين الإستعانة في أوربا بابن رشد خلال أوقات مختلفة، وحاليًا في العالم الإسلامي يُستعان بابن تيمية، إذا فالرشدية العربية تتجاوز الآن العالم الإسلامي إلى العالم الغربي؛ لأن العالم الغربي يعاني الأصولية الدينية كما يعانيها العالم الإسلامي، معنى ذلك أن العالم الإسلامي الآن لا ينفرد بالأصولية الدينية، لأنها شائعة في جميع الأديان، وأنا الآن أريد لابن رشد أن يكون معينًا للحضارة الإنسانية من تدهورها وانزلاقها نحو الأصولية الدينية، وكي تخرج من مأزق الإرهاب، وقد سعدت حين علمت أنه في الجامعة الألمانية يوجد كرسي لابن رشد، وهذا معناه أن الغرب في حاجة لابن رشد.

- في كتابك «جرثومة التخلف» ترى أن العقل العربي هو عقل ديني في مجال التقدم، وعقل علماني في مجال التخلف.. فكيف ذلك؟

■ لدينا في مجال الدين الشيخ محمد عبده وقاسم أمين وغيرهما يطالبون بتحرير المرأة، ولكنه تحرير في إطار الدين، ومن هنا نحن نقول: إذا كنا نتقدم فنحن نتقدم في هذا الإطار الديني، ولكن عندما نريد أن نوسع دائرة الإصلاح الديني إلى إصلاح سياسي في إطار العلمانية فهذا أمر مرفوض، ورفض العلمانية يعني التخلف، وبالتالي أقول هذه العبارة الملتبسة: «العقل العربي هو عقل ديني في مجال التقدم، وعقل علماني في مجال التخلف»؛ لأنه يقبل الأول ويرفض الثاني.

خيانة المثقف

- في الكتاب نفسه تذهب إلى أن مشكلة المجتمعات العربية ليست في صدام المثقف مع السلطة، ولكن في صدامه مع المجتمع ذاته؛ لأن المجتمع متخلف، ووظيفة المثقف هي الكشف عن جذور التخلف... فهل هذا هو السبب الذي جعلك فيما بعد تتّهم المثقف بالخيانة؟

■ نعم هو خائن وما زال، لماذا؟ اليوم نعاني تيار الإخوان المسلمين وما نتج عنه من تيارات أخرى، ونحن نتّهم هذا التيار بأنه تيار إرهابي تكفيري في الحد الأدنى، ويقتل في الحد الأقصى، ماذا أنتجنا من تيار ضد هذا التيار؟ لا شيء، والمثقف يكتفي فقط بإدانة الإرهاب، ويمتنع عن إزالة هذا الإرهاب، كيف يمتنع؟ هنا تكمن الخيانة، فهو يريد أن يبعدك من التفكير في ظاهرة الإرهاب، ويجرف عقلك في قضايا أخرى لا علاقة لها بالإرهاب، مثل الفقر والجهل وغيرهما، هذا الخديعة والخيانة؛ لأن هذه الأمراض موجودة قبل الإرهاب وبعده، ولها حلول أخرى لا علاقة لها بالإرهاب، فالمثقف يقول دائمًا: إنه يوجد إرهاب، لكن ما سببه؟ سببه الفقر. هذه خديعة، لأن «بن لادن» و«أبوالهدى» وأغلب قيادات الإخوان ملْيونيرات وملْياديرات، فعلى المثقف ألا يكون خائنًا، وأن يعمل على تأسيس تيار فكري مناقض لتيار الأصولية الدينية، وهو لن يفعل، وأنكر بما حدث لنجيب محفوظ، من شاب جاهل طعنه بسكين، ومحفوظ سألَه: إنْ كان قرأ أولاد حارتنا؟ فقال لا. فمن الذي قرأها؟ الذي قرأها مثقف قال للشاب: أن يقتل نجيب لأنه كافر، نجيب أدى دوره التنويري بكتابة رواية «أولاد حارتنا»، وأنا أول من كتب عنها في جريدة «وطني» حين انتهى من نشرها مسلسلة في الأهرام؛ لأني لمحت الدور التنويري في هذه الرواية، لأنه جعل من عرفة رمز العلم، وجعله لقيطًا، ولا أحد يعرف من أين جاء ولا أين ذهب، وهذا يعني أننا ضد العقل والعلم، ولعل السؤال هو: أين دور المثقف الذي عاصر نجيب محفوظ، لقد أمضى المثقفون وقتهم في الالتفاف حول نجيب محفوظ والتسامر معه، من دون أن ينجزوا ما عليهم، وحين لمح نجيب الدور المتخاذل للمثقف من حوله، أدرك أنه لن يكون سندًا له، وبالتالي لا نطالب نجيبًا بأكثر من أنه كتب الرواية ونشرها. فهل يقتل نجيب محفوظ نفسه من أجل مثقف كل دوره أنه يتباهى بصداقته بنجيب، أم أن المسألة هي الالتفاف معًا لتغيير الذهنية المصرية؟

- في الوقت الذي يُتهم فيه المثقف بالتعقيد والتقعُّر، فإنك ترى أن معهة المثقفين في الأحزاب هي تبسيط الأفكار للجماهير وجعلها أكثر شعبية، وأن مشكلة الأحزاب أنها بلا فلاسفة. أليست هذه مفارقة للواقع؟

■ نعم مفارقة، أحزاب بلا فلاسفة هي أحزاب بلا دور، لا بد أن يكون للأحزاب فلاسفة، وإلا فإنها تنتهي، ومن هنا ينتصر الحزب بمعارضة السلطة فقط، متخليًا عن دوره في تنوير الجماهير، ويلزم التنويه إلى أننا نعيش في عصر الجماهير بسبب الثورة العلمية والتكنولوجية، المفارقة أن هذه الثورة ليست من إنتاج الجماهير، ومع ذلك وجدت لخدمتهم، ونحن أبعدناها عنهم، ونوضح أن الثورة العلمية والتكنولوجية أفرزت مصطلح mass، وهو له معنيان: أحدهما كتلة، والآخر جمهور، وأنا اخترت معنى الجمهور؛ لماذا لأنه نشأت ألفاظ بها لفظ mass مضاف إليه لفظ آخر، كأن نقول: mass-media (وسائل إعلام جماهيرية)، mass-communication (وسائل اتصال جماهيرية)، mass-society (مجتمع جماهيري)، mass-man (رجل الشارع).

نحن نقول: تنمية، ولا يمكن وجود تنمية من دون رجل تاريخ مستنير، ومن يقوم بتنوير رجل الشارع؟ المثقف الذي تركه، وذلك كي يتفرغ للاصطدام بالسلطة، وهذا ما أسميه: وهم الصدام، فحقيقة الأمر أن المثقف والسلطة في مركب واحد، والسخرية أن المثقف منشغل بأسئلة وهمية مثل: هل السيسي فقد شعبيته؟ ونسي المثقف أن دوره هو تنوير الجماهير كي تساند السيسي في إصلاحاته السياسية والاقتصادية، فالسيسي منشغل بتغيير العادات الذهنية المتخلفة، فهو يقول: إن المشكلة هي الإرهاب والانفجار السكاني، وتعني كلمة انفجار سكاني وجود عادات ذهنية متخلفة، مثل القول بأن كل ولد يأتي ومعه رزقه، ومن المفروض تغيير هذه العادات الذهنية، وهذه مهمة المثقف وليست السلطة السياسية.

- كيف جعل الاستعمار العقل العربي الذي حمل مشعل الحضارة لأكثر من خمسمئة عام مصابًا بالعجز عن ممارسة العقلانية؟

■ هذا سؤال جيد، لكن معناه أننا نُرجع التخلف إلى الاستعمار، وهذا خطأ، فالاستعمار في حقيقته استثمار، عندما يجد إنسانا متخلفا يذجب نحوه؛ إذ إنه ليست لديه مقاومة، ولذا من المفروض القول بأن التخلف ليس سببه الاستعمار، ولكن عوامل داخلية مرتبطة بخيانة المثقف، المفكر الجزائري مالك بن نبي له عبارة ملهمة تقول: إن العالم الإسلامي لديه القابلية للاستعمار، وهذا معناه أن العالم الإسلامي جاذب للاستعمار، وذلك لأنه سلبي، فإذا أردت ألا تتخلف فلا بد من تفجير الطاقات الإبداعية، ولكن تفجير هذه الطاقات ممتنع بسبب وجود محرمات ثقافية، والمحرمات الثقافية ليست من صنع الاستعمار، ولكن من صنع الشعب والجمهور وخيانة المثقف. ومن ثم فربط التخلف بالاستعمار هو من بين الأوهام التي يعيش عليها المثقف لتبرير خيانته، فعلى سبيل المثال ستجد من يقول: إن الشعب المصري أو العربي متدين بطبعه، فهل الشعب الألماني أو الإنجليزي أو الياباني ليس متدينًا؟ للأسف هذه أوهام عظيمة كاذبة لتبرير خيانة المثقف لدوره في مجتمعه.

- طالبت باقتحام المحرمات الثقافية كما حدث في أوربا، بينما كانت أوربا الناهضة في ذلك الوقت تحتل الأميركتين وثلاثة أرباع المعمورة، بينما المجتمعات الشرقية تعيش حالة من التقزم والتغاول بسب الاحتلال الأوربي الممنهج منذ نحو خمس مئة عام حتى الآن، فكيف يمكن اقتحام هذه المحرمات الثقافية؟

■ لديك محرمات ثقافية تخصك، فإنك ممنوع من تأويل وفهم النص الديني، وممنوع من قبول أي نظرية علمية تقف ضد ظاهر النص الديني، ومن ثم أنت تقف ضد نظرية التطور، بينما تقبلها أوربا بفضل الإصلاح الديني والتنوير، حين تحدث تيارًا تنويريًا تستطيع أن تحدث تطورًا، وعدم اقتحام المحرمات الثقافية يجعل الباب مفتوحًا لاستثمارك في كل ما يتصل بالاستثمار، بعد ذلك تتوهم أن سبب تخلفك مردود إلى ما نسميه الاستعمار، وهو في حقيقته استثمار.

- وصفت في كتاب «مستقبل الأخلاق» أو «الميتافيزيقا والأخلاق» الخير بأنه وهم.. فكيف ذلك؟

■ الخير وهم، حين تبحث في معنى الخير فأنت تبحث عن الجذور، فأنت تحدد هذا خير وهذا شر، ومع الوقت والتطور تجد أن ما كنت تقول عنه: إنه خير أصبح شرًا، وما كنت تصفه بالشر أصبح خيرًا، ومن ثم فجذور التفرقة ليست في الخير والشر، ولكن في الأسباب التي تدفعك للقول بأن هذا خير وهذا شر. مثلًا حين يكون الناس في جلسة ويأتيهم خبر مفرح يقولون: «خير اللهم اجعله خير»، أي أنك تصنع معنى الخير، أي أنه لا يوجد خير في حد ذاته، ولكننا الذين نحدد هذا الخير، فالخير من ثم وهم، فحين أعطي مساعدة لشخص فإننا نقول: إن ذلك عمل خير، أما الأوربي فيقول: إن هذا ليس عمل خير؛ لأننا نساعده على التقاعس.

- في كتابك «الأصولية والعلمانية» عرَّفت الأصولية بأنها نظرية في المعرفة وليس السياسة، ثم ذهبت إلى أن المودودي هو المنظّر الأول للأصولية، ومن بعده سيد قطب والخميني صاحب «الحكومة الإسلامية»، فكيف ذلك؟

■ هل أنشأ حسن البنا حزبًا سياسيًا؟ وهل فعل ذلك أبو الأعلى المودودي أو سيد قطب؟ بالطبع لا، ومن ثم فالسلطة تستثمر هذا الاتجاه لصالح أغراض تخصها هي، وأذكر أنني جاءتني دعوة إلى باكستان عام ١٩٧٥م، للمشاركة في مؤتمر فلسفي هناك، لكنني لم أستجب، وقلت: إن هذه دولة دينية وأنا علماني، فطلب السفير الباكستاني في القاهرة مقابلتي، وحين سألني عن سبب رفضي قلت له ذلك، فقال: إن باكستان دولة دستورها ينص على الدين لكن أسلوبها علماني، في حين أن الهند دولة دستورها علماني، في حين أن أسلوبها ديني، فوافقت ونهبت متحدثًا عن الإصلاح الديني، فلاحظت أن كبار الأساتذة صاروا ضدي، بينما الشباب صاروا معي. وبدأت وسائل الإعلام تحكي عن الصراع الذي حدث، وطلبوا مني أن أبقى لما بعد المؤتمر كي أرى باكستان على مهل، وبعد مناقشات ورحلة طويلة خرجت بنتيجة واحدة، وهي أن أبا الأعلى المودودي وكان لا يزال على قيد الحياة وقتها، كان يدعو لأصولية دينية، وأن تعاليمه تدخل البيوت بدلًا من تعاليم محمد إقبال، لأن إقبالًا لديه انفتاح على الغرب، في حين المودودي يرفض الغرب، وكان ذو الفقار علي بوتو وقتها هو الحاكم في باكستان، وقد استقبلنا في حفل خاص بالأساتذة، كان النظام علمانيًا، فحدث انقلاب ضياء الحق على «ذو الفقار بوتو»، وأصبح مستشار ضياء الحق هو أبو الأعلى المودودي، في حين قتل بوتو.

- في رأيك، ما أبرز مفارقات الواقع الثقافي العربي؟

■ المفارقات الشهيرة التي أؤكد دائمًا أنها موجودة في الثقافة المصرية، ورأيت أهمية مناقشتها في الاحتفالية التي أعدّتها وزارة الثقافة لتكريمي، هي: مفارقة ابن رشد، وتعني أن ابن رشد ميت في الشرق وحي في الغرب، ومن ثم فليس لدى العالم العربي تيار رشدي. ومفارقة الديمقراطية وهي تعني ألا ديمقراطية بلا علمانية. ومفارقة التنوير وتعني أننا نزهو بأن لدينا تيارًا تنويريًا في حين أنه منعدم بحكم سيادة الأصولية الدينية التي تعارض التنوير بلا تيار مضاد يمنع سيادتها، وأخيرًا مفارقة الإرهاب، التي تعني أن الإرهاب ديني في حين أننا نتعامل معه على أنه ظاهرة اجتماعية وسياسية واقتصادية، الإرهاب أصبح ظاهرة كوكبية ولا بد من مواجهته كونيًا.

عن مجلة الفيصل تشرين الثاني 2017

مراد وهبة.. (فيلسوف) الأجيال

د. أنور مغيث

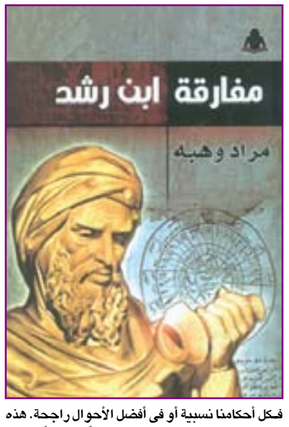

أراد المفكر الكبير الدكتور مراد وهبة أن يشتبك في غماره مع كل القضايا المصيرية لأمته: التحديث، التحرر الوطني، التعليم، الديمقراطية والإرهاب.

لم يعرف يومًا الكلل أو التقاعد، لم يفتر حماسه ولم يستسلم للتشاؤم. في قلب كل هذه المعارك أصبح صوت مراد وهبة، كما رسخ في أذهان كافة المثقفين، هو صوت الفيلسوف، وظل نموذجًا حيًا للتفاعل بين الفلسفة وقضايا الناس. لم يكن مفكرًا قوميًا مشغولًا بقضايا شعبه فقط، وإنما ظل مهمومًا بمستقبل البشرية، وبرز على الساحة الدولية كمحرك ومنظم للعديد من المؤتمرات التي يدعو فيها فلاسفة العالم لمناقشة قضايا البشر الملحة والحيوية.

تعكس كتابات مراد وهبة معرفة عميقة بتاريخ الفلسفة وإحاطة بالإنتاج الفلسفي المعاصر ومتابعة دؤوبة ومتواصلة مع ما هو جديد في الإنتاج الفلسفي، حتى مع كتابات الفلاسفة الشبان التي تعبر عن تطور مهم يود أن يلفت انتباهنا إليه. ورغم ذلك من الصعب أن ندرجه ضمن تيار بعينه من تيارات الفلسفة المعاصرة.

في كتابه محاورات فلسفية في موسكو نجده يوجه اهتمامًا كبيرًا للثالث مدارس فلسفية، المدرسة الوضعية التي طرحت قضية العلاقة بين العلم والفلسفة. وفي كتابات مراد وهبة نلاحظ اهتمامه بالنظريات العلمية الأخيرة ودورها في تغيير نظرة الإنسان للكون، مثل ميكانيكا الكوانتوم والنسبية ومبدأ عدم التحديد التي قضت على مفهومي الحتمية والموضوعية اللذين اقترنا بالعلم، لكنه لا يتمادى مع هذه المدرسة ويجعل من العلم وصيًا على الفلسفة أو يجعله المصدر الوحيد لليقين.

المدرسة الماركسية، والتي تحمس لها بوصفها حاملة لتطلعات شعوب العالم الثالث للتحرر من الإمبريالية وبناء تنميتها المستقلة عن طريق الاشتراكية، لكنه كان ينفر من نزوع أنصارها إلى الدوجماطيقية، وجعلها مذهبًا مغلقًا لا يقبل التغيير والتطوير، ويريد أن يتبين ما إذا أدت نهاية الستالينية ونشوب الحرب الباردة إلى تبني الفلاسفة السوفييت لماركسية مرنة ومنفتحة. وأخيرًا المدرسة الوجودية في اختفائها بالفرد وقدرته على الفعل والتأثير، وليس المقصود هنا الفرد المنعزل أو الهارب من مواجهة مشكلات عصره، ولكن الفرد المندمج في النضال من أجل تحقيق تطلعات شعبه. ولهذا لن يقدّر وجودية سارتر في مرحلته الناضجة عندما أراد أن يمزج بينها وبين الماركسية ويعتبر أن الجدل أي التأثير والتأثر ليس في الطبيعة كما تزعم الماركسية التقليدية، ولكن في العلاقة بين الفرد ومجتمعه. رغم هذه الاستلهامات الآتية من آفاق فلسفية مختلفة تظل رؤية مراد وهبة الفلسفية متماسكة ومتجانسة لا تنافر فيها. كيف تسنى له ذلك؟

هنا علينا أن نعود إلى كتابه المبكر المذهب في فلسفة برجسون. النجاحات المذهلة للعلم في القرن الثامن عشر أعقبها انتصار للفلسفات المادية في القرن التاسع عشر، وصار كل شيء مادة وكل حركة تخضع لقوانين الميكانيكا، وتم نفي الروح واعتبارها كلمة بلا مضمون. جاء برجسون ليدافع عن الروح في عصر العلم، واعتبر الوجود الحقيقي هو الحياة، أما المادة فهي الوجود الميت، أي الخامد والساكن، في حين أن الوجود الحي هو الديناميكي والخلاق.

في الوجود الواقعي لا توجد أشياء. لا يوجد سوى أفعال، أما الأشياء فهي ناتجة عن رغبة العقل في التصنيف والتحديد داخل سيل الحياة المدرار. الزمن الذي يستخدمه العلم في دراسة الظواهر المادية يطلق عليه برجسون الزمن البارد، أما الزمن الذي يواكب الواقع الحي فيطلق عليه الديمومة، حيث تلتحم الروح بمكونات الواقع وينشأ الخلق المتواصل. هذه الرؤية التي تجعل العالم في صيرورة مستمرة تتنافى مع الأحكام الدوجماطيقية، أي الحقيقة المطلقة والقطعية، فكل أحكامنا نسبية أو في أفضل الأحوال راجحة. هذه النظرة جعلت مذهب برجسون مذهبًا مفتوحًا يسير اتباعه في طرق شتى يشبهها مراد وهبة بالسفن في الميناء بعضها ساكن وبعضها يتحرك يسارًا، وأخرى تتحرك يمينًا، لكن الطاقة المحركة لها واحدة. هذا الانفتاح والمرونة في المذهب يجعله قابلًا للتفاعل مع أفكار تنتمي لمذاهب متعددة.

المطلق مهم لأنه يمكننا من التحديد وإضفاء الوحدة على التنوع، لكنه يظل دائمًا غاية نسعى إليها ولكن لا نبلغها أبدًا. ويأتي كتابه قصة الفلسفة ليصف لنا محاولات الفلاسفة المتوالية لاقتناص المطلق. ويأتي كل فيلسوف ليبين أن المطلق الذي توصل إليه سلفه ليس مطلقًا بالمرة، بل هو نسبي ومحدود وعابر ومتغير، من هنا جاء تعريف مراد وهبة للعلمانية بأنها التفكير في النسبي بما هو نسبي وليس بما هو مطلق.

مراد وهبة من أكبر المدافعين عن العلمانية في فكرنا العربي المعاصر. ورغم ذلك يرفض تعريفها الشائع الذي نعرفه جميعًا وهو فصل الدين عن الدولة. وسبب اعتراضه هو أن هذا التعريف قد يوحي بأنه يتحتم على الحاكم ألا يكون متدينًا وهذا يخالف روح العلمانية التي يكون فيها كل مواطن حرًا، أما تعريفه هو فيعني ضرورة التوقف عن إصدار أحكام قاطعة ومطلقة عن ظواهر متغيرة بطبيعتها، لأننا حين نعتقد أن حكمنا يقيني ونهائي، وأننا تمكنا من اقتناص المطلق نصبح مستعدين للموت في سبيله، وهو ما يعني أننا مستعدون لقتل الآخرين، فيسود في المجتمع الفتن والإرهاب والحروب الأهلية.

في محاولة مراد وهبة لتأصيله لبداية العلمانية يرجع بنا إلى اكتشاف كوبرنيقوس لدوران الأرض حول الشمس واكتشاف الإنسان أن اعتقاده بمركزية الأرض لم يكن حقيقيًا، وزال معه شعور الإنسان بمركزيته. وبدأت الأصوليات تزدهر كرد فعل للحفاظ على التصورات القديمة.

تعريف مراد وهبة للعلمانية يجعلها فضيلة معرفية أكثر منها فضيلة سياسية، ولا يفصح عن الجانب السياسي في العلمانية بوصفها طريقة في إدارة المجتمع وقاعدة في تعامل الدولة مع المواطنين مع تنوعاتهم الدينية والفكرية. ولكن هذا الجانب السياسي موجود ضمنًا في تعريفه الذي يعتبر عماده حرية الضمير للفرد وواجب الدولة في منع مُلاك الحقيقة المطلقة من إيذاء الآخرين.

يتابع مراد وهبة الجدل الدائر بشأن العلمانية في العالم بأسره ويشير إلى أن المؤتمرات تعقد في العالم الغربي من أجل تطوير العلمانية كي تكون قادرة على استيعاب الظواهر الاجتماعية الجديدة مثل الهجرات الكثيفة والتصدي للأصولية، أما في العالم الإسلامي فتعقد المؤتمرات لبحث إمكانيات القضاء عليها ووأدها في مهدها.

مراد وهبة والثنائيات الطاردة

حلمي النمنم

في جنازة د. مراد وهبة، كان هناك عدد كبير من أساتذة الجامعات، خاصةً أساتذة الفلسفة، من مختلف الأجيال والجامعات، زملاء وأصدقاء كثر، د. سعيد توفيق، د. أنور مغيث، د. عصام عبد الفتاح وآخرين.

كان هذا الحضور مثيرًا للتساؤل حول مكانة الفكر والفلسفة في حياتنا العامة، فضلًا عن مكانة د. مراد وهبة في مسارنا الفكري العام.

انتمى د. مراد إلى جيل من أساتذة الفلسفة، حصلوا بجهدهم وبفضل المناخ العام على تكوين وبناء فكري وأكاديمي عميق، ضم هذا الجيل أسماء مثل د. فؤاد زكريا، د. زكريا إبراهيم، ومن نفس الجيل لكن ابتعدوا عن الهيئة الأكاديمية أسماء مثل أنيس منصور ومحمود أمين العالم ويوسف الشاروني.

الذين ظلوا في العمل الأكاديمي تأثروا بالجيل السابق عليهم مباشرة مثل عبد الرحمن بدوى وزكى نجيب محمود وعثمان أمين.

هؤلاء جميعا لم يكتفوا بالعمل الأكاديمي فقط، لكن أدرك كل منهم أن عليه واجبا تجاه هذا الوطن ونحو عموم المواطنين، مارسوا التفاعل الفكرى والفلسفى مع همومنا العامة، وباتت هى المسيطرة عليهم والشاغل لهم. كان ذلك تقليدًا داخل الجامعة المصرية، التى تأسست فى قلب الحركة الوطنية ومواجهة المحتل البريطانى.

فى وقت ما شغل بعض المثقفين أنفسهم بسؤال من تلك الأسئلة التى اعتبرها «صفرية»، تقوم على المفاضلة بين هذا وذاك، عبد الرحمن بدوى أو زكى نجيب محمود؟ عثمان أمين أم أحمد فؤاد الأهوانى؟ حسن حنفى أو عاطف العراقى؟ فؤاد زكريا أو مراد وهبة؟

والحق أن سؤال إما أو، ليس مناسبا ولا هو جيد فى كل وقت، لأنه سؤال طارد، يذهب إلى الأحادية، على طريقة الأهلى أو الزمالك.

فى الفكر لا تكون الأمور هكذا، لا يصح التساؤل أفلاطون أو أرسطو.. ديكارت أو كانط، هيجل أو نيتشه؟

من أسف أن حياتنا كلها سيطر عليها منطق إما أو، المعنى أننا نفسيا لا نستوعب أن يكون هناك فلان وفلان، نحتمل أحدهما فقط.

فى المجال الثقافى عموما، كانت التساؤلات حافظ أو شوقى.. طه حسين أو العقاد.. نجيب محفوظ أو يوسف إدريس.. أم كلثوم أو عبد الوهاب؟ وهكذا الحال حتى وصلنا إلى المجال الفلسفى.

ويبدو لى أن هذا المنطق يرجع الى مراحل سابقة فى تاريخنا وتراثنا، حين كان التساؤل، المعتزلة أو الأشاعرة؟، الفقهاء أو المتصوفة؟، الغزالى أو ابن رشد؟، تاريخيا أدت هذه المفاضلات غالبا إلى إشاعة مناخ التربص والإزاحة، سحق أو إزاحة طرف لحساب طرف آخر. من الفكر والشعر إلى السياسة والولاية.

فى الفكر والثقافة هناك قاعدة التراكم والتواصل أو الاستمرارية، كل يبنى على ما سبق ويضيف إليه، اتفاق أو اختلاف، حوار وجدل، فضلًا عن أن كل مفكر يقيم بإنتاجه ودوره، باختصار ما قدمه من إنجاز، فى ظل الظروف والمعطيات التى أحاطت به.

كان د. مراد وهبة بحكم تكوينه الفلسفى وإجادته التامة لعدة لغات أجنبية مهيأ إلى أن يقضى عمره مشغولا بالفيلسوف الألمانى كانط أو هنرى برجسون وسواهما، لكنه لم يفعل، فقد اتجه إلى المجال العام، وهكذا كان توقفه المطول أمام الفقيه والفيلسوف ابن رشد.

من دراساته لاحظ مفارقة تاريخية حول ابن رشد، فقد أحرقت كتبه وطوردت أفكاره فى العالمين العربى والإسلامى، بينما استوعبت أوروبا تلك الأفكار، درست كتبه وأفكاره جيدا، فيما عرف بالرشدية اللاتينية، الأمر الذى جعل أوروبا تغادر العصور الوسطى الى عصر النهضة، من هنا كان مشروعه بالعمل على استعادة ابن رشد فى فكرنا وحياتنا العقلية.

تبنى أفكار ابن رشد يعنى الاصطدام المباشر بالأصولية، لنقل الأصوليات العديدة فى مجتمعاتنا، لكنه لم يعبأ بذلك، تحمل الكثير من السخافات.

هناك من اعتبروا ابن رشد ملكية خاصة، بحكم التخصص الأكاديمى، هؤلاء نظروا إلى مراد وهبة شذرا، ليقف عند حدود تخصصه الدقيق والمباشر، يكفيه برجسون ومذهبه.

كان د. مراد وهبة فى ذلك يسير على خطى أستاذه المباشر د.عبد الرحمن بدوى، كان بدوى متخصصا فى الفلسفة الوجودية، لكنه اتجه الى التراث الفلسفى الإسلامى، مترجمًا العديد من دراسات المستشرقين ومحققا لعدد من النصوص والأعمال التراثية بالإضافة إلى أعمال مهمة أصدرها، مثل «الإنسانية والوجودية فى الفكر العربى».. «مذاهب الإسلاميين».

وهناك من يرون فى ابن رشد مجرد فقيه وفيلسوف مسلم، لا يصح أن يقترب مسيحى مصرى أو عربى منه، وإذا فعل فهذا يعنى أن هناك مؤامرة كبرى على التراث الإسلامى.

الغريب أن بعض هؤلاء لم يترددوا فى الاعتماد وربما النقل المباشر عن مستشرق (مسيحى أوروبى)، بينما يزعجهم أن ينشغل مسيحى مصرى به!.

أما الذين يكرهون ابن رشد تاريخيا، أحفاد من طاردوه حيا وميتا، فيعتبرون أن أفكاره، خاصة ما يتعلق منها بالتأويل بين العقل والنقل، مؤامرة تستهدف الإسلام كله.

فى المجال الفكرى والإبداعى تسقط هذه الحسابات الضيقة، ذلك أن الفيلسوف أو المفكر يطرح أفكاره وتصبح متاحة أمام الجميع، جمهورية أفلاطون ملك العقل البشرى كله، صحيح أنه إغريقى، لكن أعماله متاحة للدارسين من مختلف الثقافات والبلدان وهكذا الحال مع المتنبى وأبو تمام.. الكندى وابن سينا وابن خلدون، وحتى طه حسين وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ.

الأهم من ذلك أن مراد وهبة، كان يسمى الأشياء بمسمياتها، لا يعرف منطق (لف ودوران) فى استعمال المصطلحات والكلمات ولا فى مواقفه، مما عرضه لكثير من الحملات والكراهية.

ولد مراد وهبة فى الصعيد «أسيوط»، وكان قراره أن يعيش مواطنًا مصريًا فى المقام الأول، كانت أمامه فرص كثيرة لأن يعيش بعيدا، حيث لا تحامل ولا محاولة تهميش، كان مصريا أولًا وأخيرًا، جاب الدنيا وصار مبكرًا اسمًا دوليًا، لكن لم يغادر مصريته لحظة.

عن المصري اليوم

الشخص والفيلسوف

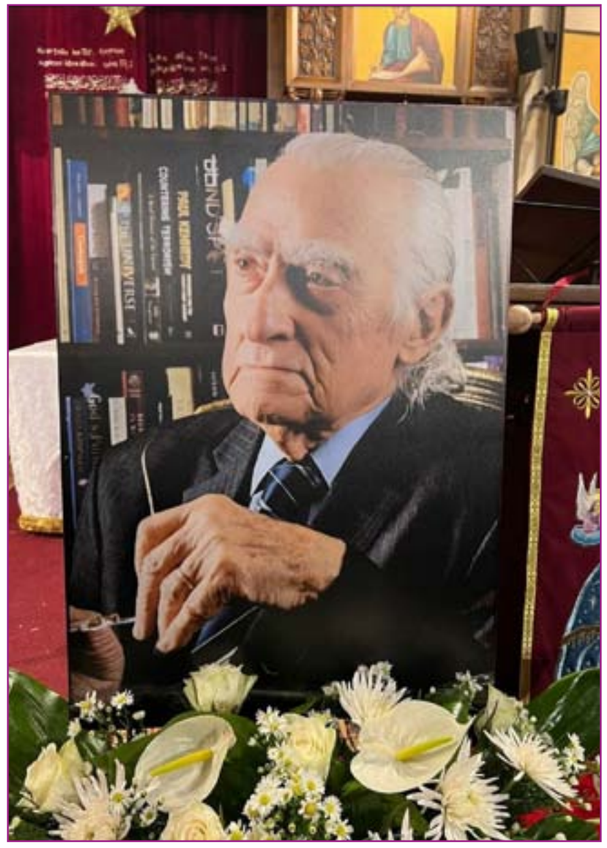

د. سعيد توفيق

بقى مراد وهبة بيننا منارةً تُضيء ظُلمات الفكر فى عالمنا، سواء فى عالمنا الواسع الذى نُوجد فيه، أو عالمنا الخاص الذى نعايشه. هذا حدث مهم من دون شك. غير أن هذا الحدث المهم- كما أفهمه- ليس مجرد احتفاء أو لا ينبغى أن يكون كذلك؛ فالأهمية الحقيقية لهذا الاحتفاء تكمن فى التنبيه على فكر هذا المفكر التنويرى الحقيقى الذى ينبغى علينا إشاعة فكره بين الناس، خاصةً لدى أجيال الشباب.

أنا أنتمى إلى الجيل التالى على مراد وهبه فى مجال الفلسفة. وربما يحق لى أن أدلى بدلوى فى هذا الصدد باعتبارى من الشاهدين على فكره وشخصه، وإن لم أتتلمذ عليه فى الجامعة. ولقد عرفت مراد وهبه منذ أن اطلعت على بعض من كتاباته فى شبابى، وبمرور السنين تعرفت بشكل أعمق على فكر هذا الرجل وعلى شخصه النبيل. وفيما يتعلق بشخصه، أود أن أذكر هنا واقعة لم أصرح بها من قبل على الملأ: فحينما تقدمت للترقية إلى درجة أستاذ فى أواخر سنة ١٩٩٨، تعرضت لخدعة من جانب لجنة الترقيات التى أصابها العطن الذى أصاب سائر الجامعات وأساتذتها؛ إذ إن هذه اللجنة قد أرسلت إنتاجى العلمى إلى محكمين مختصين بتحكيم إنتاج صديقى العالم المرحوم مصطفى لبيب، وأرسلوا فى الوقت ذاته إنتاج مصطفى لبيب إلى المحكمين المختصين والمنصوص عليهم لتحكيم إنتاجى العلمى فى الفلسفة. تلك خطة شيطانية كان الهدف منها هو تعطيل ترقيتى، وتلك هى عقلية كثير من الأساتذة فى عصرنا الذين تحولوا إلى موظفين ينظرون إلى الأمور العلمية بمنطق الترقيات الوظيفية. يحدث هذا دومًا فى حياتنا، وذاك أمر لا يهمنى الآن، فما يهمنى هو موقف مراد وهبه فى هذا الشأن: فعندما تأخر إصدار قرار اللجنة لمدة نصف عام، اتصلت بأستاذنا مراد وهبه، وقلت له لقد تأخر ردكم كثيرًا، فلعل المانع خيرًا، فاندهش أستاذنا من سؤالى، وتساءل: هل أنت متأكد من أننى محكم لإنتاجك العلمى؟ قلت: نعم. قال: لقد أرسلوا الى إنتاج الدكتور مصطفى لبيب!! قلت: هذا خطأ متعمد. قال: تعالى إلى بيتى بحى شبرا ومعك الإنتاج، أنا أعرفك وقرأت بعض كتاباتك. ثم أردف: لا تبتئس، فلقد عانيت أنا شخصيًا من هؤلاء؛ كتب أستاذنا تقريرًا منحنى فيه أعلى الدرجات التى تُمنح للأساتذة، وأرسله إلى اللجنة العلمية التى انكشفت حيلتها بذلك. لا يهم تفاصيل الحدث، وإنما يهمنى دلالته، وهى أننا إزاء مفكر حقيقى مستقل يتحلى بالعدالة، أعنى بالضمير والنزاهة؛ فلا عدالة من دون ضمير حى يتميز بالنزاهة ويُعلن عن موقفه. هذا بشجاعة، وتلك هى خصيصة مراد وهبه فى فكره وشخصه. وحينما ترأست تحرير سلسلة الفلسفة التابعة لهيئة قصور الثقافة أسعدنى إصدار كتابين لأستاذنا الجليل، وهما: «أقول العقل» و«رؤيتى للقرن الحادى والعشرين». كما شاركته فى تحكيم ترقيات الأساتذة ومنح رسائل الدكتوراه.

وحينما ننتقل إلى تناول فكر مراد وهبه، فإننا ينبغى أن نعى دائمًا أن مراد وهبه ليس مجرد أستاذ للفلسفة عارف بأصولها ومباحثها، وعلى علم دقيق بالمصطلح الفلسفى (حتى إن المعجم الفلسفى قد عُرف به، ولا يزال المتخصصون يرجعون إليه)؛ وإنما هو أيضًا مفكر سياسى واجتماعى. كما أن اهتمامه بالسياسة لم يكن على مستوى التنظير وحسب، وإنما قد امتد فى المقام الأول إلى الاهتمام بتفسير الأحداث السياسية كما تجرى على أرض الواقع. والحقيقة أننا لا نجد فى هذا الصدد نظيرًا لمراد وهبه من بين أساتذة الفلسفة فى مصر.

السؤال الآن هو: ما مناط فكر مراد وهبه وروحه العامة؟

روح فكره فى كلمة واحدة هى «التنوير». والحقيقة أن هذه الكلمة قد أصبحت عندى مستهجنة؛ لأنها أصبحت متداولة فى نوع من الابتذال على ألسنة المفكرين والمثقفين فى واقعنا العربى من خلال ترديد مقولات أيديولوجية مرتبطة بعصر التنوير الأوروبى. ولكننا مع مراد وهبه نجد رؤى تنويرية تستوعب رؤى عصر الحداثة التنويرى وعصر ما بعد الحداثة معًا. كما أن رؤيته تنشغل فى المقام الأول بتطبيق مقولات الفكر المستنير على الواقع. ويمكننا إجمال مناط اهتمام هذا الفكر فى النقاط التالية:

العَلمانية: فالدعوة إلى العَلمانية هى السمة الغالبة على فكر مراد وهبه. وهو يفهم العلمانية كما يحق لها أن تُفهم: فالعَلمانية لا تعنى الإلحاد كما هو الحال فى أذهان العوام، ولا هى تعنى الفصل بين الدين والدولة. والحقيقة أننى لم أجد تعريفًا للعلمانية أفضل من تعريف مراد وهبه لها، وهو: «التفكير فى النسبى بما هو نسبى وليس بما هو مطلق». والحقيقة أن هذا التعريف المقتضب لمعنى العلمانية يستوعب سائر التعريفات المتباينة لها: فالعلمانية عنده تعنى أن الأمور النسبية المتغيرة فى عالمنا لا ينبغى التفكير فيها كما لو كانت أمورًا مطلقة؛ فالإنسان لم يعد مركزًا الكون، ولا مالكًا للحقيقة المطلقة. ومن ثم فإن تفكيره نسبى. المطلق هو الله، أما العالم ذاته فشؤونه نسبية متغيرة، أى تتعلق بما هو دنيوى، كما يوحى بذلك الأصل اللغوى لكلمة العلمانية ذاتها secularism المستمد من كلمة saeculum التى تعنى الجيل أو العصر، أى شؤون العالم المتغيرة من عصر إلى عصر ومن جيل إلى آخر. وهناك أنواع من العلمانية لا محل للخوض فيها فى هذا السياق. ولكن من المهم التأكيد على أن العلمانية لا تعنى الإلحاد ولا تعنى تهميش الدين أو الإيمان فى حياة الناس، وإنما تعنى التحرر من توقيف شؤون الدنيا على الإيمان بحقائق مطلقة بما فى ذلك الإيمان بوجود الله؛ لأن الإيمان نفسه يظل خيارًا من الخيارات الإنسانية. وهذا يعنى أنه يمكن للمرء الانخراط فى الشؤون السياسية وفى شؤون العلم والفكر والفن دون إقحام الله. وهذا يعنى فى النهاية أن العلمانية هى نسق ثقافى لا مجرد نسق سياسى تتبناه الدولة.

التحرر من الأصولية: تقشى الأصولية مرتبط عند مراد وهبه بغياب العلمانية والتفكير العقلانى. ذلك أن الأصولية تعنى الإيمان بحقيقة واحدة مطلقة باعتبارها الأصل الذى يُقاس عليه. أبرز وأخطر أشكال الأصولية هى الأصولية الدينية التى تأخذ بظاهر النصوص وترفض تأويلها أو إعمال العقل فيها. ويرى مراد وهبه أن الأصولية فى القرن العشرين هى التى أفضت إلى الإرهاب فى القرن الحادى والعشرين. ولقد بلغت هذه الأصولية حد التحريض على القتل باسم الدين، وإمام هذه الأصولية هو ابن تيمية الذى هو مرجعية السلفيين وجماعة الإخوان المسلمين ومن اتبع ملتهم. التحرر من الأصولية يمكن تحقيقه من خلال تأسيس ثقافة تنوير حقيقية، يساهم فى تشكيلها نظام تعليمى، ثقافة تعلم الناس مبادئ مثل: الديموقراطية والليبرالية والعلمانية فى مواجهة مفاهيم أخرى مثل: الشمولية والاستبداد والفاشية بكل صورها، التى أخطرها الفاشية الدينية.

هذا كلام قد يبدو حميدًا ومهمًا، لكن تحقيقه مرهون بالنوايا المخلصة لدى القائمين على شؤون الثقافة والتعليم، وليس لدينا سوى التنبيه والأمانى.

عن المصري اليوم

manarat

www.almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
غادة العاملي
رفعة عبد الرزاق

صمارات

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون

مراد وهبة.. الإحتفاء بالعقل

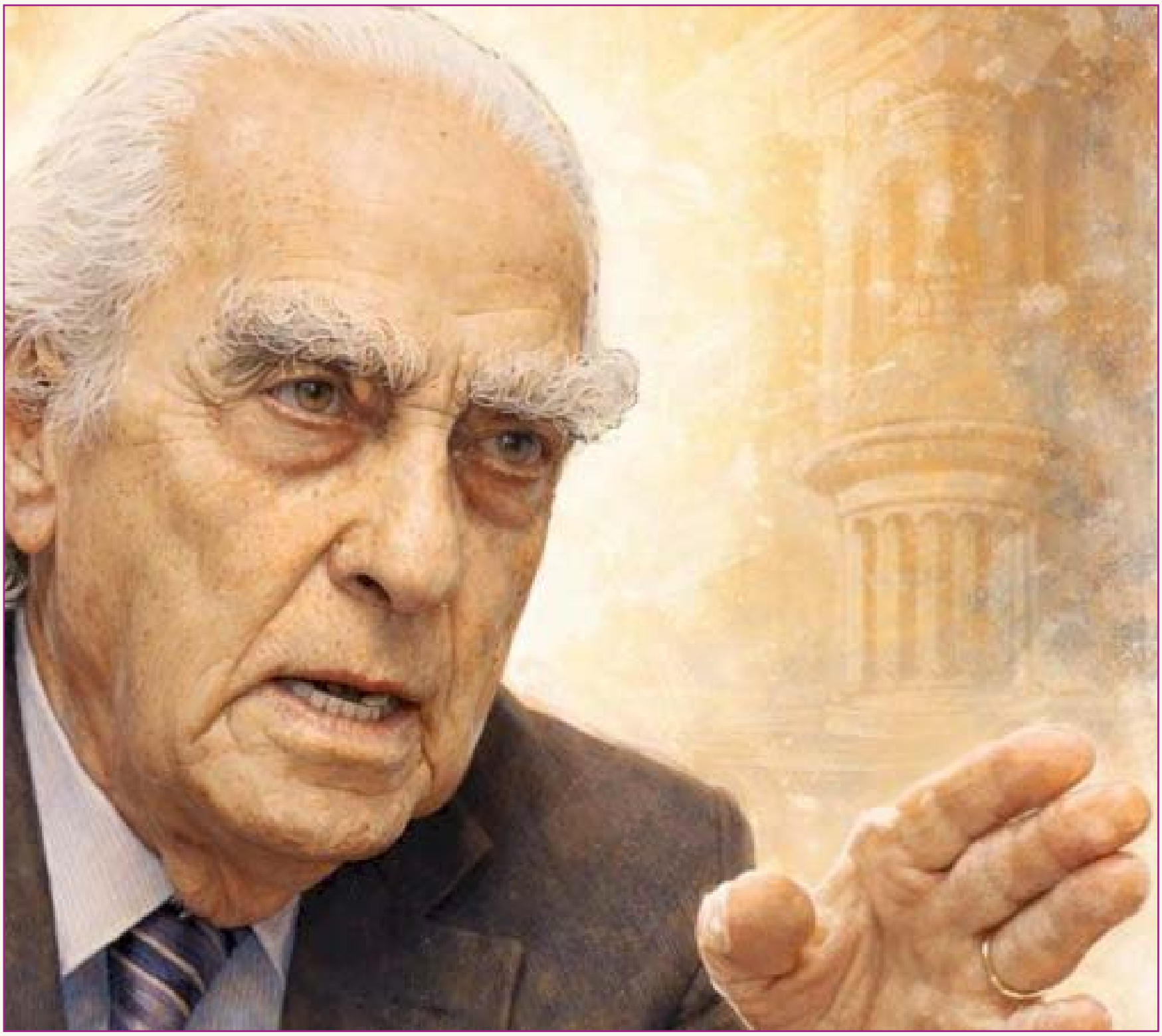

د. أحمد زايد

عندما يكون الاحتفاء بالفيلسوف الكبير مراد وهبة يكون الاحتفاء بالعقل حاضرًا بقوة. لقد اكتشف مراد وهبة بحسه الفلسفى الخصب أن حياتنا المعاصرة هى حياة تفتقد إلى التفكير العقلانى الرشيد، وأن التاريخ قد أحبط الفكر العقلانى، بل إنه قتله عندما أحرق كتب ابن رشد؛ كما أكتشف أيضًا أن ظهور بذور التطرف والغلو والميول الأصولية فى مجتمعاتنا ناتج عن غياب العقل، حيث يميل الإنسان إلى التفكير العاطفى أو الوجدانى أو الخرافى، فيتجه إلى الماضى ويعتبره أفضل من الحاضر، ويؤسس للأصولية التى تأخذ المجتمعات إلى آفاق الضلال والفوضى.

ويحق لنا أن نحتفى مع مراد وهبة بالعقل، وأن نُثمن هذا الفكر الذى يهدف إلى بناء نهضة يكون العقل مركزها، ومجتمع يسيطر عليه التفكير الذى يبعده عن النزعات الأصولية والميول والاتجاهات الخرافية. لقد كان العقل محركًا للتاريخ الحديث منذ أن طرح ديكارت (١٥٩٦-١٦٥٠) عبارته الشهيرة «أنا أفكر أنا إذن موجود». لقد جعلت هذه العبارة الإنسان القادر على الفكر هو مركز الكون، وجعلت من العقل إطارًا للتقدم ولهزيمة كل الأفكار التى تدفع الإنسان إلى الوراء. ولا شك أن هذه العبارة كانت نابعة من رؤية لتاريخ الحضارة. فالعقل هو الذى يقف خلف صناعة الحضارة؛ وهو الذى يُمكن الإنسان من أن يسيطر على الطبيعة وأن يسخرها لخدمة أهدافه الإنسانية.

وأحسب أننا فى أمس الحاجة لكى نعيد قراءة الفكر العقلى، بدءًا من الحضارات القديمة، ومرورًا بابن رشد، وانتهاءً بالحضارة الحديثة. ونحن بحاجة أيضًا إلى أن نستمد من مراد وهبة درسا يتمثل فى قدرته الفائقة على الدفاع عن فكرته والصمود عليها، والعمل على نشرها. فإذا كنا نؤمن معه بأن التفكير العقلى ضرورى لحياتنا المعاصرة، ولإنقاذ مجتمعاتنا مما يحاصرها من أفكار سلفية متطرفة، فإننا بحاجة إلى أن نتعلم هذا الدرس بأن نشدد على موقفنا العقلى، وأن ندافع عنه ما شاء لنا الدفاع.

وثمة بُعد آخر يجعل الدفاع عن الفكر العقلانى ضرورة ملحة فى حياتنا. إن مجتمعاتنا العربية مجتمعات شابة، وأن أجيالها الصغيرة كبيرة العدد يجب أن تحصل على أفضل أنواع التعليم، ويجب ألا تترك لغواية مخاطر الاستهلاك ووسائل التواصل الاجتماعى، ولا سبيل إلى تحقيق الحماية من هذه المخاطر إلا بدفعهم إلى القراءة وإلى التعرف الحقيقى على الأصل فى بناء الحضارة، الذى هو العقل وما ينتجه من فكر وعلم، وألا سبيل إلى بناء مستقبل مزدهر إلا بالتحيز إلى الفكر العقلانى، والسير فى نور العقل، والتخلص من ظلمات الجهل والتطرف والأصولية. وهذا هو الطريق الذى يدعو إليه فيلسوفنا الكبير

مدير مكتبة الإسكندرية